

تاريخ النشر: 02 جانفي 2019

تاريخ القبول: 20 نوفمبر 2018

تاريخ الإرسال: 24 أكتوبر 2018

أثر البنية الإحالية لضمير الشأن في التماسك النصي
(دراسة تطبيقية في بعض آي القرآن الكريم)

*The effect of the forward structure of the pronoun in text coherence
(Applied study in some of the Holy Quran)*

د. نورالدين دريم
قسم اللغة العربية جامعة الشلف
الجزائر
n.drim@univhb-chlef.dz

الملخص:

يتناول البحث دراسة قضية لغوية، لها امتداد في تراثنا العربي، وإن كانت وليدة العصر- الحديث، انبثقت من رحم الدراسات اللسانية، هي الإحالة التي تشكل محور التماسك النصي، الذي يدرسه علم اللغة النصي، فقد تعرض كثير من اللغويين القدامى، والمفسرين أيضا إلى موضوع الإحالة في باب عود الضائير، وإن لم يصطلحوا عليها بهذا الاسم، أما حديثا فقد انتقل التحليل من الجملة إلى النص؛ لاعتبارات عدّة، منها أن النص يشكل وحدة لغوية كبرى، تعمل مجموعة من الوسائل على تحقيق تماسكه، ومن بينها الإحالة بالضائير فهي من أقوى الوسائل التي تحقق التماسك الدلالي له، وهي بهذا لا تقل أهمية عن باقي وسائل الترابط الأخرى، وذلك لأنها تقرن بين الربط الرصفي لأجزائه والربط المفهومي، بناء على ما تقدّم حاولت دراسة الإحالة في النص القرآني، من خلال تحليل نماذج تطبيقية.

الكلمات المفتاحية: دراسة، الإحالة النصية، النص، التحليل، الضائير.

Abstract:

The study deals with the study of a linguistic issue that has an extension in our Arab heritage, although it is the origin of the modern era. It emerged from the womb of the linguistic studies. This is the reference that forms the focus of the textual coherence taught by the linguistic linguistics. In the door of the promises of consciences, and if they do not call it by this name, but recently has moved the analysis from the sentence to the text; for several considerations, including that the text is a major linguistic unit, working a variety of means to achieve coherence, including the reference to consciences is one of the strongest means His semantic coherence is achieved Because it is linked between the interconnectivity of the parts and the conceptual connection, based on the above I tried to study the reference in the text of the Koran, through the analysis of application models.

Key words : Study, textual reference, text, analysis, pronouns.

كانت أغلب الدراسات اللسانية فيما مضى تهدف إلى تحليل الجملة، وبيان مكوناتها الأساسية لأنها في نظر اللسانيين

مقدّمة:

فمصطلح (*Rgeference*) و(*Referent*) في الإنجليزية، و(*Référence*) و(*Référent*) في الفرنسية، يترجمان إلى العربية تارة بالإحالة والمرجع على التوالي، وتارة أخرى بالمرجع والإحالة على التوالي، وقد تطال إشكالية عدم ضبط الترجمة في بعض الأحيان حتى المفهوم " حيث يستخدم كلا من المصطلحين مترادفين لمفهوم واحد أو يستخدم أحدهما بمفهوم الآخر " ² ، ولي وقفة مع مفهوم الإحالة في اللغة والاصطلاح.

لغة : الإحالة مصدر للفعل أحال، وقد جاء من معانيها في اللسان ما نصه " المُحال من الكلام : ما عدل به عن وجهه، وحَوَّله جعله مُحالاً، وأحال أتى بِمُحال، ورجل مُحال: كثير محال الكلام ...، ويقال: أحلت الكلام أحيله إحالة إذا أفسدته، وروى ابن شميل عن الخليل بن أحمد أنه قال: المحال الكلام لغير شيء ...، والجوَال كل شيء حال بين اثنين... حال الرجل يحول تحوّل من موضع إلى موضع، وعن الجوهري: حال إلى مكان آخر أي تحوّل ... " ³ ، وفي المصباح " أحلت عليه بالسوط والرمح سدّدته إليه، وأقبلت به عليه،... وأحلت الأمر على زيد، أي جعلته مقصورا عليه مطلوباً به " ⁴.

يظهر جلياً من المعاني اللغوية لـ " أحال " أنها تتأرجح بين اللزوم والتعدي، فمتى كانت متعدية دلت على نقل الأشياء من حال إلى أخرى، كما دلت أيضاً على توجيه شيء على شيء لربط بينهما، وكلمة " أحال " في هذا الباب تلتقي في الدلالة مع المعنى الاصطلاحي، حيث يحيل العنصر الإحالي على عنصر إشاري يفسره، ويبيّن دلالاته، " فالتحول والتغيّر ونقل الشيء من حالة إلى حالة، لا يتم إلا في ظل وجود علاقة قائمة بينهما، تلك العلاقة هي التي سمحت بالتغير كما أنّ اللفظ المحيل يحمل معنى ما يشير إليه، فهو تغيّر من حيث الجهة كالعودة إلى الوراء أو الانتقال إلى الأمام من خلال علاقة قائمة بين الأسماء والمسميات، أو بين اللفظ وما يحيل إليه، فإرجاع اللفظ إلى ما يشير إليه إمّا هو تغيّر في الجهة ونقل المتلقي بعقله من مكان إلى مكان آخر داخل النص أو خارجه " ⁵ ، وسيتبيّن لنا هذا بصورة جليّة حين الوقوف على المعنى الاصطلاحي للإحالة الذي يحمل في طياته ضرورة تجسيد العلاقة وبيان طبيعتها.

اصطلاحاً: تعدّ الإحالة من أهم الوسائل الاتساقية المساهمة في الربط بين أجزاء النص، والمحققة لتماسكه، فلا يكاد يخلو نص منها، وأمّا الوسائل الأخرى فلا تفتأ تعتمد عليها أو تكون داخلة فيها، ولا أعالي إن قلت: إن نظرية الاتساق تعتمد بدرجة أكبر على مفهوم الإحالة ووظيفتها.

يقصد بالإحالة كل " العناصر المحيلة كيفما كان نوعها لا تكفي بذاتها من حيث التأويل، إذ لا بدّ من العودة إلى ما تشير

"أعلى وحدة لغوية يمكن أن يطالها الوصف" ¹ ، ولكن هذا الأمر جعلها محلاً للنقد؛ لأنها اتخذت الجملة منطلقاً لتحليلها اللغوي، وعلى إثر هذا النقد هرع المشتغلون في الدرس اللساني إلى البحث عن طرائق إجرائية جديدة تكون فعالة، يتخطى التحليل فيها حدود الجملة إلى وحدات أكبر منها، فقد أصبح نحو الجملة - في نظر أولئك النقاد - نحو ناقصاً يتسم بالضعف وأحياناً يتجاوزها إلى الخطأ، ولهذا السبب طوّر اللسانيون في سبعينيات القرن العشرين حقلاً جديداً تجاوزوا فيه حدود تحليل الجملة إلى تحليل النص بوصفه الوحدة اللغوية الكبرى، الذي اصطلح عليه " علم اللغة النصي " ، ويبدو أنّ الاتساق أحد هذه الطرائق التي اعتمدها محللو النصوص في التحليل، الذي يتحقّق بفضل التماسك النصي، وقد وصفت الإحالة وفسرت ودرست ضمن هذا الإطار (نحو النص).

تعدّ الإحالة بالضائر من أقوى الوسائل لتحقيق التماسك الدلالي للنص القرآني، وهي بهذا لا تقلّ أهمية عن باقي وسائل الترابط الأخرى: الاستبدال، الحذف، الوصل، الاتساق العجبي، التكرار،... إلخ، وذلك لأنها تقرن بين الربط الرصفي لأجزائه والربط المفهومي، أي بين ما هو لفظي وما هو معنوي.

ومن بين أقسام الضمير، أثرت دراسة ضمير الشأن، فوسمت هذا المقال بـ " أثر البنية الإحالية لضمير الشأن في التماسك النصي - دراسة تطبيقية في بعض آي القرآن الكريم -، وانطلقت في ذلك من إشكالية مفادها: كيف تحقّق البنية الإحالية لضمير الشأن التماسك النصي في القرآن الكريم؟. مركزاً في دراستي على النقاط الآتية :

- الإحالة : مفهومها ، أقسامها ، عناصرها.
- الإحالة في الفكر اللغوي العربي القديم.
- الضائر وسيلة من وسائل الاتساق الإحالي.
- ضمير الشأن : مفهومه ، شروطه.
- الدراسة التطبيقية: تتضمن دراسة مجموعة من الآيات القرآنية التي ورد فيها ضمير الشأن في إطار علم اللغة النصي.

مفهوم الإحالة:

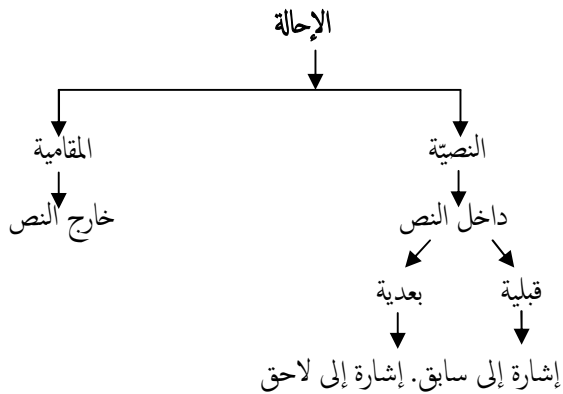
يعدّ مصطلح الإحالة قديماً قدم البحث اللغوي، ولكنه اكتسب - ثوب الجدّة حين توسع استعماله حديثاً في علم اللغة النصي-، بيد أنّ اللغويين النصيين لم يتفقوا على تعريف موحد له، ومن المعلوم بالضرورة أنّ الفكرين الفلسفي واللغوي قديمهما وحديثهما قد تقاسما تناول الإحالة من جهة المفهوم، باعتبارها أدوات تعبير، ولا يفوتنا الحديث عن التداخل الحاصل بين مصطلح الإحالة و مصطلح آخر هو المرجع، ويعود ذلك - في نظري - إلى عدم الدقة في ترجمة المصطلحين من اللغتين الإنجليزية والفرنسية إلى العربية،

إليه من أجل تأويلها⁶؛ فكل لغة من لغات العالم تتوفر على عناصر لغوية تمتاز عن غيرها بخاصية الإحالة؛ أي إنها " لا تمتلك دلالة مستقلة، بل تقود إلى عنصر أو عناصر أخرى مذكورة في أجزاء أخرى من الخطاب، فشرط وجودها هو النص، وهي تقوم على مبدأ التماثل بين ما سبق ذكره في مقام ما، وبين ما هو مذكور بعد ذلك في مقام آخر"⁷، وهذا التماثل الحاصل بين العنصر المحيل والعنصر المحال إليه، لا يخضع إلى قيود نحوية، تما صير الإحالة علاقة دلالية؛ لأنها " تخضع لقيود دلالية، وهو وجوب تطابق الخصائص الدلالية بين العنصر المحيل والعنصر المحال إليه"⁸. ولم تنل الجملة الأولى في النص ذلك الاهتمام والعناية من المتكلم إلا لغاية واحدة، وهي أن تأويل الثاني متوقف على فهم الأول وتأويله، ثم إنها تشكل علاقة مع بقية أجزاء النص وكذا تحكمها في هذه الأجزاء " ففي الغالب يركز المرسل كل جهوده في هذه الجملة، إذ يكون ما بعدها غالبا تفسيرا لها، وتمثل كذلك المحور الذي يدور عليه النص فيما بعد، إذ تتعلق الأجزاء الباقية من النص بالجملة الأولى بوسيلة ما، وهذا واضح في النص القرآني"⁹.

ويمكننا مما سبق تقديم تعريف للإحالة على أنها عبارة عن ألفاظ تحيل على مسميات تكون العلاقة بينها معنوية سواء أشارت إليها داخل النص أو خارجه، وهذه الأخيرة يدل عليها السياق أو المقام، عن طريق كلمات محددة كالضائر وأسماء الإشارة والأسماء الموصولة... بحيث تشير إلى مواقف سابقة أو لاحقة في النص.

تشتمل اللغة على نوعين من العناصر يمتلان ماهية الإحالة، وهما: العنصر الإشاري والعنصر الإحالي، فالعنصر الإشاري هو " كلّ مكون لا يحتاج في فهمه إلى مكون آخر يفسره"¹⁷، نحو ضمير المتكلم أنا فهو يحيل على ذات صاحبه، أما العنصر الإحالي: فهو " كلّ مكون يحتاج في فهمه إلى مكون آخر يفسره"¹⁸.

أقسام الإحالة: انطلاقا مما ورد في التعريفات السابقة للإحالة يمكن أن نقسمها إلى قسمين: إحالة نصية وأخرى مقامية، وتتفرع الإحالة النصية إلى فرعين: إحالة إلى سابق، وإحالة إلى لاحق، وتمثل لأقسام الإحالة بالمخطط الآتي :



يتضح من المخطط أن الإحالة تتواجد على مستوى ثلاث نقاط رئيسية، وهي: علاقتها بالنص، ومن حيث سبق المرجع، ومن حيث المدى، فالإحالة من جهة علاقتها بالنص

ويرى أحمد عفيفي أن " الإحالة علاقة معنوية بين ألفاظ معيّنة، وما تشير إليه من أشياء أو معان أو مواقف تدل عليها عبارات أخرى في السياق، أو يدل عليها المقام، وتلك الألفاظ المحيلة تعطي معناها عن طريق قصد المتكلم، مثل الضمير واسم الإشارة واسم الموصول... إلخ حيث تشير هذه الألفاظ إلى أشياء سابقة أو لاحقة، قصدت عن طريق ألفاظ أخرى أو عبارات أو مواقف لغوية أو غير لغوية"¹⁰، فأساس الإحالة بيان المعنى سواء كان ذلك باللفظ (عنصر لغوي) أو بغير لفظ (عنصر غير لغوي) داخل النص أو خارجه.

ويقول جون لايزر في سياق حديثه عن المفهوم الدلالي التقليدي للإحالة " إن العلاقة القائمة بين الأسماء والمسميات هي علاقة إحالة، فالأسماء تحيل إلى المسميات"¹¹، والملاحظ حاليا أن مفهوم الإحالة في علم النص قد تغير على ما كان عليه قديما . وقد عرفها دي بوجراند بأنها " العلاقة بين العبارات من جهة وبين الأشياء والمواقف في العالم الخارجي الذي تشير إليه العبارات"¹²، ونلمس من خلال هذا التعريف إشارة إلى أقسام الإحالة كما سيأتي ذكره.

ونقل حسن بحيري تصور تنبير للإحالة، فهي عنده " ربط دلالي إضافي، لا يطابقه أي ربط تركيب"¹³، ويرى بحيري في حديثه عن الإحالة، أن كلامير قد قدم تصورا أكثر وضوحا، فهي عنده " العلاقة القائمة بين عنصر لغوي يطلق عليه عنصر علاقة، وضائر يطلق عليها صيغ الإحالة"¹⁴.

ولكن يمكن لبعض الأفعال أن تؤدي هذه الوظيفة التي أداها الضمير؛ لتعطينا الوظيفة الإحالية نفسها، كالفعل (فَعَلَ) ومثاله: أحمد راجع ورده من القرآن، وكذلك فعل مُحَمَّد. فالفعل (فَعَلَ) رجوعاً إلى ما سبق، إلى الفعل (راجع) ²⁷، و يمكن أن تكون الإحالة بتكرار كلمة واحدة أو عبارة واحدة في جملتين متعاقبتين ²⁸، نحو: عليك بالصدق، الصدق منجاة، فكلمة (الصدق) الثانية هي تكرر للأولى، وما هذا التكرار في هذا التركيب إلا ليدلّ أن المقصود بالصدق الثاني هو الصدق الأول وهذا يتحقق التماسك والاتساق بين الجملتين، وهذا النوع من الإحالة كثير في القرآن الكريم.

ب - الإحالة البعدية: هي " استعمال كلمة أو عبارة تشير إلى كلمة أخرى أو عبارة أخرى سوف تستعمل لاحقاً في النص أو المحادثة " ²⁹، بحيث " تعود على عنصر إشاري مذكور بعدها في النص ولاحقاً عليها " ³⁰، ويبرز هذا النوع من الإحالة في الوظيفة التي يؤديها ضمير الشأن في التركيب العربية. نحو قوله تعالى " قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ " ³¹، فالضمير " هو " في الآية ضمير شأن يحيل إلى لفظ الجلالة الله. هذا بالنسبة للكلمات، أما الجمل والعبارات، فمثالها الجمل التفسيرية التي تفسر جملة أو عبارة، كما في أساء السور، والجمل الأولى منها. الإحالة من حيث المدى: تكون إما قريبة أو بعيدة، وتتحدد انطلاقاً من موقع العنصر المحال والمحال عليه في النص. عناصر الإحالة: تتوزع عناصر الإحالة كما يلي ³²:

- 1- المتكلم: أو الكاتب صانع النص، ويقصده المعنوي تتم الإحالة إلى ما أراد؛ حيث يشير علماء النص إلى أن الإحالة عمل إنساني.
- 2- اللفظ المحيل: وهذا العنصر الإحالي ينبغي أن يتجسد إما ظاهراً أو مقدراً، كالضمير أو الإشارة، وهو الذي سيحولنا، ويغيرنا من اتجاه خارج النص إلى داخله.
- 3- المحال إليه: وهو موجود إما خارج النص أو داخله من كلمات أو عبارات أو دلالات، وتفيد معرفة الإنسان بالنص وفهمه في الوصول إلى المحال إليه.
- 4- العلاقة بين اللفظ المحيل والمحال إليه: والمفروض أن يكون التناظر مجسداً بين اللفظ المحيل والمحال إليه.

الإحالة في الفكر اللغوي العربي القديم:

إن المطلع على التراث اللغوي العربي ليجد ثمة نصوصاً توحى بأن علماء العربية المتقدمين كانت لهم نظرات ثاقبة في التطرق إلى ماهية الإحالة بالمعنى الحديث الذي تناوله علماء النصيّة، سواء ما تعلق بالجملة أو ما تجاوزها إلى النص، فبنظرة متأنية فاحصة يتجلى لنا مفهوم الإحالة بنوعها القبلية والبعدية،

تنقسم إلى إحالة داخل النص، وتستمر أيضاً إحالة داخل اللغة، والثانية إحالة خارج النص، وتستمر أيضاً إحالة خارج اللغة. الإحالة المقامية (إحالة خارج النص):

وهي " الإحالة التي يحيل فيها المتحدث إلى شيء غير موجود في النص، ويمكن تسميتها بالإحالة لغير مذكور، أو مرجع متصيد أي: الإتيان بالضمير للدلالة على أمر ما غير مذكور " ¹⁹. ويرى الأزهر الزناد أنها " إحالة عنصر لغوي إلى عنصر إشاري غير لغوي موجود في المقام الخارجي، كأن يحيل ضمير المتكلم المفرد إلى ذات المتكلم، حيث يرتبط عنصر لغوي إحالي بعنصر غير لغوي هو ذات المتكلم، ويمكن أن يشير عنصر لغوي إلى المقام ذاته في تفاصيله، أو مجملاً، إذ يمثل كائناً أو مرجعاً موجوداً مستقلاً بنفسه " ²⁰.

فالعلاقة التي تربط هذا النوع من الإحالة بالنص هي علاقة ائتلاف لا تنافر؛ لأن السياق هو السبيل الوحيد الذي يضمن تفسيرها تفسيراً صائباً، يقول روبرت دي بوجراند " تعتمد الإحالة لغير مذكور في الأساس على سياق الموقف شأنها في ذلك شأن الإحالة لمذكور سابق، والإحالة لمتأخر " ²¹، كما تسهم الإحالة المقامية " في خلق النص لكونها تربط اللغة بسياق المقام إلا أنها لا تساهم في اتساقه بشكل مباشر " ²²، فإذا كانت الإحالة النصية عملية تتم داخل النص، فإن الإحالة المقامية تتم بين عنصر داخل النص، وآخر خارجه؛ لذا كان هذا النوع من الإحالة يتوقف على معرفة سياق الحال، وما يحيط بالنص من أحداث ومواقف، تمكن من خلالها معرفة المحال إليه من بين الملابس المحيطة بالنص ²³، ونكون في ميسر الحاجة لهذا النوع من الإحالة متى تعدد المحال، وخاصة عندما يتعلق الأمر بالضائر، ففي كثير من الأحيان يتعذر علينا معرفة العائد الذي يعود عليه الضمير إلا بالنظر إلى السياق وما يحيط بالنص من مواقف وملابس.

الإحالة النصية (إحالة داخل النص): وهي إحالة عنصر لغوي على عنصر لغوي آخر داخل النص سابقاً كان أم لاحقاً؛ بمعنى "إحالة على العناصر اللغوية الواردة في الملفوظ " ²⁴، تتمثل في "العلاقات الإحالية داخل النص سواء أكانت بالرجوع إلى سابق أم بالإشارة إلى ما سوف يأتي داخل النص " ²⁵، وهي قسبان:

أ - الإحالة القبلية: هي إحالة على سابق ورد في النص، ومعناها استخدام كلمة أو عبارة تشير إلى كلمة أخرى أو عبارة أخرى تكون سابقة في النص أو المحادثة ²⁶؛ حيث يعوض اللفظ المفسر الذي لو ظهر لحل محل المضمّر، نحو: سعد زار الجامعة، لكن أسامة لم يزرها. فالضمير (ها) يشير إلى كلمة الجامعة الواردة في الجملة الأولى، وهنا أبدل الاسم الظاهر بالضمير،

الضمير (ها) وبين المحال إليه إفراداً وتأييماً، والإحالة دائماً نصية داخل الآيات نفسها، وأما إلى جملة أمور تستغرق خمس آيات وهي (ذكر النعمة، الوفاء بالعهد، رهبة الله، الإيمان برسالة محمد، وتقوى الله والالتزام بأوامره، وهذا التحليل يشير إلى أنّ الضمير يقوم بوظيفتين استحضر عنصر متقدم في خطاب سابق، واستحضر مجموع خطاب سابق في خطاب لاحق³⁹.

وقد قدم الزركشي في كتابه البرهان إشارات عديدة اتّسمت بالنصية، خاصة تلك التي تعلق بالضمائر وإحالاتها في النص القرآني، حيث تحدّث عن الإحالة القبلية والبعديّة، والمقامية وتعدد المحال إليه و الضمير واحد، ومن ذلك قوله " إذا اجتمعت ضمائر، فحيث أمكن عودها لواحد فهو أولى من عودها لمتنلف و لهذا لما جوّز بعضهم في قوله تعالى " أن أقذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ " ⁴⁰ أنّ الضمير في " فأقذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ " للتأبوت وما بعده، وما قبله عابه الزمخشري، وجعله تنافراً ومخرجا للقرآن عن إعجازه فقال: والضمائر كلّها راجعة إلى موسى و رجوع بعضها إليه وبعضها إلى التأبوت فيه هجئة لما يؤدي إليه من تنافر النظر، فإن قلت: المقذوف في البحر هو التأبوت وكذلك الملقى إلى الساحل، قلت: ما ضرك لو جعلت المقذوف والملقى إلى الساحل هو موسى في جوف التأبوت، حتى لا تفرق الضمائر فيتنافر عليك النظم الذي هو قوام إعجاز القرآن، ومراعاته أهم ما يجب على المفسّر " ⁴¹، وأما السيوطي فقد رأى أنّ تعدد المحال إليه للضمير الواحد من الأسباب المؤدية إلى الإجمال في القرآن الكريم؛ أي توليد معان كثيرة من جمل قليلة، من ذلك تحليله لقوله تعالى " إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ " ⁴²، يقول " يحتمل عود ضمير الفاعل في (يرفعه) إلى ما عاد عليه ضمير (إليه) وهو الله تعالى، ويحتمل عودها إلى العمل والمعنى أن العمل الصالح هو الذي يرفعه الكلم الطيب، ويحتمل عودها إلى الكلم الطيب، وهو التوحيد، يرفع العمل الصالح؛ لأنه لا يصح العمل إلا مع الإيمان " ⁴³، يظهر من قول السيوطي تعدد المحال إليه (لفظ الجلالة الله، العمل الصالح، الكلم الطيب) والمحال (الضمير) واحد وكلها مترابطة يترتب أحدها على الآخر، فالمؤمن يسلم أمره كلّه لله في صعود العمل الصالح وقبوله والعمل الصالح يرتبط بالقول الطيب، وإثما حصل الإجمال بفضل الضمير وتعدد إحالاته.

ولم يغفل النحاة والأصوليون الحديث عن الإحالة، فقد تناولها النحاة العرب من منظورين: منظور لفظي صرف، ومنظور معنوي، ولم تتوقف تحليلاتهم عند حدّ الجملة - كما يعتقد بعضهم - بل تعدّت إلى الربط بين أكثر من جملة، وقد عدّت إشاراتهم في هذا المجال لبيّنات في بناء تحليل نصي وأما

وإبراز دور الضمائر وأهميتها في الربط بين السابق واللاحق، كما تمثله المفسرون والنحويون، والبلاغيون على حد سواء.

وبالعودة إلى الكتاب نجد أنّ سيويه قد استند إلى مفهوم الإحالة، وذلك في بيان شدة التماسك والترابط بين المبتدأ والخبر؛ لأنّ كليهما يشيران إلى الشيء نفسه، فالثاني هو الأول " وأنّ المبني عليه هو " ³³، فإن اختلف المبتدأ والخبر يجب أن يكون في الخبر " ذكر فإن لم يكن على أحد هذين الوجهين فهو محال، ونظير ذلك: زيد يذهب غلامه وزيد أبوه كريم ... ولو قلت زيد قام عمر لم يجز " ³⁴، وإثما منع النحاة ذلك في هذا الموضع لعدم وجود رابط في جملة الخبر يعود على المبتدأ، وهذا الرابط في جملة الخبر قد يكون ضميراً أو ذكر يعود إلى المبتدأ. ويدل هذا على وجود إرهابات للفكر النصي الإحالي في التراث العربي، تكاد تتفق مع ما توصل إليه علماء اللسانيات النصية، ومن الإشارات النصية، ما ذكره علماء الاحتجاج للقراءات القرآنية، وما جاء في كتب إعراب القرآن، لبيان أهمية الضمير، وإبراز دوره في تماسك النص واتساقه، في مواضع كثيرة من القرآن الكريم، نحو " ففي قوله " وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ " ³⁵، الهاء في " وَيَتْلُوهُ " للقرآن فتكون الهاء على هذا القول في " مِنْهُ " لله جل ذكره والشاهد الإنجيل، أي يتلو القرآن في التقديم، والإنجيل من عند الله فتكون الهاء في " قَبْلَهُ " للإنجيل وقيل الهاء في " وَيَتْلُوهُ " لمحمد - صلى الله عليه وسلم -، فيكون الشاهد لسانه والهاء في منه لمحمد - صلى الله عليه وسلم -، وقيل للقرآن وكذلك الهاء في " قَبْلَهُ " لمحمد - صلى الله عليه و سلم - وقيل الشاهد جبريل - عليه السلام -، والهاء في " مِنْهُ " على هذا القول لله تعالى، وفي من " قَبْلَهُ " لجبريل أيضاً، وقيل الشاهد إعجاز القرآن، فالهاء في " مِنْهُ " على هذا القول لله تعالى والهاء في " قَبْلَهُ " للقرآن، والهاء في " يُؤْمِنُونَ بِهِ " للقرآن و قيل لمحمد - عليه السلام - " ³⁶. نلتمس من قول القيسي تعددا واختلافاً في مرجعية الضمير، والوقوف على تحديد مرجعيته بدقة، يعود في الأساس إلى المتلقي، ومدى إدراكه واستيعابه لدلالات التركيب من أجل فهم النص، وتتجلى هذه النظرة إلى تعدد المحال إليه عند المفسرين بصورة أوضح، تنبئ عن امتلاكهم لفكر نصي في زمن متقدّم من عمر الحضارة العربية الإسلامية، يشير الزمخشري في قوله تعالى " وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ، وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ " ³⁷ إلى أنّ " الضمير للصلاة أو للاستعانة، يجوز أن يكون لجميع الأمور التي أمر بها بنو إسرائيل ونهوا عنها إلى قوله " اذْكُرُوا نِعْمَتِي " إلى " وَاسْتَعِينُوا " ³⁸، فالضمير (ها) هنا إما أن يعود إلى الصلاة وهي أقرب من الاستعانة وإما إلى الاستعانة وفي كلتا الحالتين هناك تطابق بين

الأصوليون فقد عالجوها في كتب أصول الفقه، من خلال ثنائيتين اثنتين: ثنائية العام في مقابل الخاص، وثنائية المطلق في مقابل المقيد⁴⁴.

إن وجود إشارات في التراث العربي - وخاصة عند البلاغيين والمفسرين - اتسمت بالنصية وقارت التحليلات المعاصرة للنص، جعل الكثير من علماء اللغة المعاصرين يحدّثون على السعي نحو الربط بين القديم والحديث، وذلك بقراءة التراث قراءة معاصرة على ضوء المناهج الحديثة⁴⁵، وإغفال ذلك (التراث وما يحمله) يعدّ ضرباً من الخطورة، ومن ثمّ " فإننا نؤمن أن البدء من الصفر المنهجي في هذا المقام - مقام الدراسة النصية - يعني إهدار أربعة عشر قرناً من النتاج اللساني المتميز، الذي هو إنجاز قوم من أعلم الناس بفقهاء العربية، وأسرار تراكيبيها، وذخائر تراثها"⁴⁶، فالطموح لوضع نظرية علمية لن يتحقق إلا بإحياء الأفكار الصالحة في التراث، وكذا الاستفادة من الدراسات الحديثة، والعمل على تكثيف العمل التطبيقي.

الضمان وسيلة من وسائل الاتساق الإحالي:

تشمل وسائل الاتساق الإحالي كل الألفاظ التي يعتمد عليها من أجل تحديد المحال إليه أينما وقع سواء في داخل النص أو خارجه، وقد سمّاهها هاليدي (أدوات) " وهي التي نغتمد في فهمنا لها لا على معناها الخاص، بل على إسنادها إلى شيء آخر"⁴⁷، واصطلح عليها روبرت دي بوجران بالآلفاظ الكنائية، وحدّد سماتها⁴⁸، وأطلق عليها الأزهري الزناد تسمية العناصر الإحالية في اللغة، واعتبرها من قبيل المعوضات، وأشار إلى أنها تأتي تعويضاً عن وحدات معجمية يمكن أن تطلق عليها مصطلح العنصر الإشاري⁴⁹، وتشمل كل ما يشير إلى ذات أو موقع أو زمن، وتنقسم العناصر الإحالية عنده إلى: 1- الضمان، 2- أسماء الإشارة.

وذكر محمد خطاي أنها عناصر تملك خاصية الإحالة، وكل لغة طبيعية تتوفر على تلك العناصر الإحالية، التي قسمتها هاليدي ورقية حسن في كتابها الاتساق في الإنجليزية إلى ثلاثة أقسام⁵⁰:

1- الضمان، 2- أسماء الإشارة، 3 - أدوات المقارنة، وهذه الوسائل تؤدي دوراً مهماً وأساسياً في تحقيق التماسك النصي.

مفهوم الضمير وأقسامه:

الضمير: لغة من ضمير: والجمع ضمائر، و" الضمير: هو السرّ، والشيء الذي تضمه في قلبها، والضمير والمضمير بمعنى واحد، من أضمّرت الشيء: أخفيته"⁵¹، يقال: أضمّرت الشيء: أخفاه. ويقال: أضمّرت في نفسه شيئاً: عزم عليه بقلبه. والضمير: المضمير الذي تخفيه في نفسك، ويصعب الوقوف عليه⁵².

أما الضمير في الاصطلاح: هو اللفظ الموضوع للدلالة على الغائب أو المتكلم أو المخاطب مثل: أنا، ونحن، وأنت وفروعه وهو وفروعه⁵³ والضمير: بمعنى المضمير، والإضمار، وهو اصطلاح البصريين، أما الكوفيون فاستخدموا مصطلح الكناية. ويقول السكاكي في تعريفه " أعلم أنّ الضمير عبارة عن الاسم المتضمن للإشارة إلى المتكلم أو إلى المخاطب أو إلى غيرها بعد سابق ذكره"⁵⁴، كقول أحدهم: اشتريت جثةً وحذاءً فلبستها. والضمير اسم جامد مبني، وبسبب بنائه لا يثنى، ولا يجمع، فلا تلحقه علامة التثنية أو الجمع، وأما يدلّ بذاته وصيغته على المفرد أو المثني أو الجمع المذكور أو المؤنث⁵⁵.

أقسامه: يرى الأزهري الزناد أنّ الضمان في العربية تنفرع "حسب الحضور في المقام أو الغياب إلى فرعين كبيرين متقابلين هما: ضمائر الحضور و ضمائر الغياب، ثم تنفرع ضمائر الحضور إلى متكلم هو مركز المقام الإشاري وهو الباث، وإلى مخاطب يقابله في ذلك المقام ويشاركه فيه وهو المتقبل"⁵⁶، ذلك أن بعضاً من الكلمات قد يحل محل بعض؛ فتحل الضمان محل الأسماء، وتقوم مقامها غير أن لها محتوى دلالي أصغر⁵⁷.

ويقسّم بعضهم الضمان إلى ضمائر وجودية مثل أنا، أنت، هو، هم... إلخ وإلى ضمائر ملكية مثل: كتابي، كتابك، كتابهم، كتابه، كتابنا... إلخ⁵⁸، وإذا نظرنا إلى الضمان من زاوية الاتساق، أمكن التمييز فيها بين أدوار الكلام التي تندرج تحتها جميع الضمان الدالة على المتكلم والمخاطب وهي إحالة خارج النص بشكل نمطي، ولا تصبح إحالة داخل النص، أي اتساقية، إلا في الكلام المستشهد به⁵⁹.

تعدّ الضمان سواء كانت وجودية أو ملكية من قبيل الإحالة المقامية (خارج النص)؛ لذلك لا يعوّل النصّيون عليها في عملية الاتساق النصي، " إنّما الذي يعوّل عليه كثيراً هو ضمائر الغياب التي تميل غالباً إلى شيء داخل النص، وتكون إحالة نصية، ومن ثمّ تجبر المتلقي على البحث في النص عما يعود إليه الضمير، فيكون ذلك من قبيل الترابط النصي، وهذا ما يؤكد على دراسته النصّيون"⁶⁰.

ضمير الشأن (المفهوم واحد والمصطلح النال متعدّد):

الشأن في لغة العرب: الأمر والحال والخطب⁶¹، وضمير الشأن هو الضمير الذي لم يتقدمه ما يعود عليه، وسمي ضمير الشأن؛ لأنه يرمز للشأن الذي سيدور الكلام عنه، وهو "ضمير مبهم يكون في صدر جملة بعده، تفسر دلالته وتوضح المراد منه ومعناه"⁶²، نحو قوله تعالى " وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ"⁶³، "ف هو" في الآية ضمير شأن تفسره الجملة بعده، وقد يرد ضمير الشأن محذوفاً أو مقدّراً في التركيب، نحو قوله تعالى " وَتَعْلَمُ

مقولتهم هذه علماء اللغة النصبون في بحوثهم الحديثة حول هذه الضمير، وأما الجملة المفسرة له فهي مرجعه.

الدراسة التطبيقية:

ورد ضمير الشأن في القرآن الكريم على صور ثلاث منفصلا، ومتصلا، ومحدوفا، وفيما يأتي سنبرز كيف تؤثر البنية الإحالية لضمير الشأن بصوره الثلاث في تماسك النص القرآني واتساقه.

- النموذج الأول: قوله تعالى " مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَكُسْرُوفُونَ"⁷². جاء ضمير الشأن في الآية متصلا وقد أحال إلى عنصر إشاري عظيم هو قتل النفس بغير حق، فقتل نفس واحدة يعدل عند الله قتل الناس جميعا، فتشبيه " قتل النفس الواحدة بقتل النفوس هو المبالغة في تعظيم أمر القتل، وتضخيم شأنه، أي أن قتل كل الخلق أمر مستعظم عند كل أحد، فكذلك يجب أن يكون قتل الإنسان الواحد مستعظما جميعا، والغاية بيان مشاركتها في الاستعظام"⁷³، فحقق ضمير الشأن تلك الغاية، إضافة إلى أنه أدى وظيفة ربط معنوي في الآية بين جملتين، الأولى " كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ " والثانية " مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ " مما حقق تماسكا نصيا بين أجزاء الآية.

- النموذج الثاني: قوله تعالى " وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ"⁷⁴، جاء ضمير الشأن في الآية متصلا، وقد أحال إلى عنصر إشاري، يفهم من سياق الجملة المفسرة له " مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ " بعده (إحالة بعدية)، هو التوبة إلى الله والرجوع إليه، والإقلاع عن المعصية والابتعاد عنها. وقد ساهم ضمير الشأن في ربط دلالي بين جملة " كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ "، وجملة " مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ "، نشأ عنه تماسك نصي، ودليل ذلك، فتح همزة " أَنَّهُ "، على أنها بدل من الرحمة، أي " أَنَّهُ جعل أن بدلا من الرحمة على بدل الشيء من الشيء، وهو هو، فأعمل فيها كنب، كأنه قال: كنب ربكم على نفسه أنه من عمل "⁷⁵، و إنما كانت كذلك؛ لأن الصلة وثيقة بين رحمة الله، والرجوع عن فعل الشر.

النموذج الثالث: قوله تعالى " لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا"⁷⁶، جاء ضمير الشأن في الآية منفصلا، وقد أحال إلى عنصر إشاري عظيم هو " الربوبية "، حيث أقر العبد " ربوبيته لربه، وانفراده فيها "⁷⁷، وهذا المعنى يفهم من الجملة المفسرة

"أَنْ قَدْ صَدَّقْنَا"⁶⁴، ف" أن " في الآية مخففة من أن، واسمها ضمير شأن محذوف "أنه"، وجملة الخبر فعلية فعلها مشتق، فصل بينها وبين ضمير الشأن (اسم أن) ب"قد"، وهي الجملة المفسرة له. ويشكل ضمير الشأن بنية إحالية ذات وظيفة خاصة، حرص النحاة على تأكيدها، وهم يتفقون أساسا في أنه مبهم، غائب مفرد، يتصدر الجملة، يفسره ما يليه، يقصد به التعظيم والتضخيم،... وهو كناية عن الجملة بعده، وتكون الجملة خبرا له وتفسيرا له أيضا؛ ولذا يطلق عليه ضمير الجملة "⁶⁵.

وله عدة تسميات منها: ضمير الشأن، الضمير المجهول، ضمير الأمر، ضمير الحديث، ضمير القصة، ضمير العماد، ضمير الحالة، فآثر كل نفر من اللغويين أو النحويين أو المفسرين استخدام مصطلح مما تقدم ذكره، فاستخدم البصريون مصطلحات " الشأن، والحديث، والقصة " بمعنى واحد؛ لأنهم نظروا إليه من جهة دلالاته على تعظيم الأمر، وتضخيم الشأن، والجملة بعده مفسرة له، أي قدروا اسما من معناها يفسر هذا الضمير"⁶⁶، واستخدم الكوفيون مصطلح " الضمير المجهول "؛ لأن " ذلك الشأن مجهول لكونه مقدرًا إلى أن يفسر "⁶⁷، فلم يتقدمه ما يعود عليه، " وهذا الضمير لا يكون تفسيره إلا من بعده، ولو تقدم تفسيره قبله لما احتاج إلى تفسير "⁶⁸. واستخدم التحاسي والجرجاني والطبرسي والقرطبي"⁶⁹، مصطلحات " الحديث، والأمر، والحالة "، مرادفة لمصطلح الشأن.

والغاية من تقديم ضمير الشأن في التركيب، بيئتها الخطيب القزويني قوله " إن السامع متى لم يفهم من الضمير معنى بقي منتظرا لعقبى الكلام كيف تكون، فيتمكن المسموع في ذهنه فضل تمكن "⁷⁰، ويتم ذلك عن طريق الجملة المفسرة له التي تأتي بعده.

شروط ضمير الشأن:

لضمير الشأن شروط منها⁷¹:

- عوده على ما بعده لزوما، إذ لا يجوز للجملة المفسرة له أن تتقدم هي ولا شيء منها عليه.
- أن مفسره لا يكون إلا جملة، ولا يشاركه في هذا ضمير.
- أنه لا يتبع بتابع، فلا يؤكد ولا يعطف عليه، ولا يبدل منه.
- أنه لا يعمل فيه إلا الابتداء أو أحد نواسخه.
- أنه ملازم للإفراد، فلا يثنى ولا يجمع، وإن فسر بجديثين أو أحاديث.

أجمع النحاة على أن العائد هو ضمير الشأن في كل التراكيب التي يرد فيها ومما كانت صورة هذا الضمير، و أكد

أحال إلى عنصر إشاري عظيم هو " تحذير من الله للناس أن يقيموا على الكفر والمعاصي " الذي جاء تفسيراً له، وقد حقق هذا الضمير ربطاً معنوياً بين جملة " حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ " وجملة " شَاحِصَةٌ أَنْبَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا "، ففتح يأجوج ومأجوج وهما قبيلتان عظيمتان من بني آدم، وهول هذا المنظر يؤدي إلى أن تكون أبصار الكافرين شاحصة، وعلى هذا يتحقق التماسك النصي الذي تتيحه البنية الإحالية لضمير الشأن الوارد في هذه الآية.

النموذج السادس: قوله تعالى " لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ " ⁸⁶. جاء ضمير الشأن (العنصر الإحالي) في الآية متصلاً، وقد أحال إلى عنصر إشاري عظيم هو "الشرك بالله وجزاؤه"، فالموقف في الآية موقف تعظيم؛ لأنّ الشرك بالله من أكبر الكبائر، وضمير الشأن ناسب هذا السياق لما فيه من تفخيم، وقد فُسر العنصر الإحالي (ضمير الشأن)، بالجملة بعده، و" إنك ترى لضمير الشأن والأمر معها من الحسن واللفظ، ما لا تراه إذا هي لم تدخل عليه، بل تراه لا يصلح حيث صلح إلا بها " ⁸⁷، فيظهر من قول الجرجاني مدى أهمية ضمير الشأن في الربط بين أجزاء الآية وفاعليته في تحقيق التماسك النصي بين الآيات.

النموذج السابع: قوله تعالى " قَالَ مَعَادَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُغْلِبُ الظَّالِمُونَ " ⁸⁸، الهاء في " أنه " ضمير شأن، وهو عنصر إحالي، قد أحال إحالة بعدية تضمنت المحنة العظيمة، وهي " أعظم على يوسف من محنة إخوته، وصره عليها أعظم أجراً؛ لأنه صبر اختيار مع وجود الدواعي الكثيرة لوقوع الفعل " ⁸⁹، وقد فسر بجملة " ربي أحسن مثواي "، ومثله الضمير في " إنه "، فهو ضمير شأن إحالة نصية بعدية تضمنت أعظم ظلم بأن يقابل يوسف عليه السلام سيده في أهله بأقبح مقابلة، وقد تحقق بفضل الضمير التماسك والاتساق بين الجمل في الآية، و" الحاصل أنه جعل الموانع له من هذا الفعل: تقوى الله، ومراعاة حق سيده الذي أكرمه، وصيانة نفسه عن الظلم الذي لا يفلح من تعاطاه " ⁹⁰.

النموذج الثامن: قوله تعالى " وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ " ⁹¹، جاء ضمير الشأن (العنصر الإحالي) متصلاً، وقد أحال إلى عنصر إشاري عظيم هو: ألوهية الله عزّ وجلّ وبيان أنّ الإله الحقّ المعبود، فسر بجملة بعده، وقد حقق ضمير الشأن تماسكاً نصياً يظهر من خلال

(المرجع) بعده، والإحالة هنا إحالة نصية بعدية، وقد برز الضمير؛ لأنّ المقام مقام تفخيم، وتعظيم شأن، فكان المنفصل البارز أولى من المتصل، والمستتر المحذوف، فتحقق الترابط التصني بين المحال والمحال إليه في الآية بصورة أوضح، ولا يخفى أيضاً التماسك الذي أوجده الضمير بين جملة " لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي "، وبين جملة " لَا أَشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا "؛ لأنّ الإقرار بالربوبية يقتضي عدم الإشراف بالله تعالى.

النموذج الرابع: قوله تعالى " قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ " ⁷⁸، أجاز النحاة في إعراب الضمير وجهين: الأول: هو: ضمير شأن، والجملة من المبتدأ والخبر خبر للضمير، والثاني: هو مبتدأ، ولفظ الجلالة الله خبر له أو بدل منه أو خبر مبتدأ محذوف، والراجح حسب رأي علماء النصية أنّ " هو " ضمير شأن؛ لأنّ هناك علاقة بين المحال (الضمير) والمحال إليه (الجملة المفسرة) في الإحالة النصية، ولتتمس من السياق إحالة مقامية، فالسورة مكية، مشتتة على توحيد صفات الله عزّ وجل، فالعنصر الإشاري (الجملة المفسرة) تضمنت معنى الشأن والتعظيم مفهوم من السياق، وقد أكدته الإحالة المقامية، فجملة " الله أحد "، " قد انحصرت فيها الأحدية، فهو الأحد المنفرد بالكمال، الذي له الأسماء الحسنى، والصفات الكاملة العليا، والأفعال المقدسة، الذي لا نظير له ولا مثيل " ⁸⁰، فالضمير لم يتقدمه مذكور، وقد ورد منفصلاً بارزاً ناسب معنى الشأن، وفسرته الجملة بعده، وقد أكد القيسي أنّ الضمير في الآية ضمير شأن يقول " وهو إضمار الحديث أو الخبر أو الأمر " ⁸¹، وإلى هذا ذهب الجرجاني ورأى أنّ هذا أقوى الوجهين وأوضحهما ⁸². ويظهر التماسك النصي جلياً بين آيات السورة، والذي تحقق من خلال الإحالتين: النصية التي ساهمت في ربط الآيات واتساقها، والمقامية التي ساهمت في ربط اللغة بالسياق، واللذان يبتنا البنية الإحالية للضمير (ضمير شأن)، فلمّا انحصرت الأحدية والكمال والقدرة التي لا مثيل ولا نظير لها في الله عزّ وجلّ (معنى الآية الأولى)، جاءت الآية الثانية منسجمة معها ف" الله الصمد " هو المقصود في جميع الحوائج، وأهل العالم العلوي والسفلي مفتقرون إليه غاية الافتقار، يسألونه حوائجهم " ⁸³ ثم جاءت الآية الثالثة تحمك الاتساق والانسجام ف" لم يلد ولم يولد " بينت كمال غنى الله جلّ وعلا، وأثبت الآية الرابعة " ولم يكن له كفواً أحد " وأكدت ما جاء في الآية الأولى من أنّ المولى تبارك وتعالى لا نظير له، لا في أسائه ولا في أوصافه، ولا في أفعاله.

النموذج الخامس: قوله تعالى " وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَنْبَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَتَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ " ⁸⁴. هي ضمير شأن ⁸⁵ ورد في الآية منفصلاً، وقد

ثم تليها الآية 139، وفيها " الترهيب العظيم من موالة الكافرين، وترك موالة المؤمنين، وأن ذلك من صفات المنافقين، وأن الإيمان يقتضي محبة المؤمنين وموالاتهم، وبغض الكافرين وعداوتهم"¹⁰¹، ثم تأتي الآية 140، وفيها عظم ذنب الكفار والمنافقين، كما أحال عليه ضمير الشأن وفسرته الجملة الشرطية بعده، وبيان جزائهم من رب العزة بأن يجمعهم في جهنم، كما اجتمعوا على الكفر والموالة، فيظهر من هذا أن هناك إحالة سلمية، كان لضمير الشأن فيها دورا فعّالا في التماسك النصي بين هذه الآيات.

النموذج الحادي عشر: قوله تعالى " قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَاتِبِكُمْ لِيُبْتَغَىٰ عَمَلٌ فَسَوْفَ تُعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ النَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ"¹⁰²، جاء ضمير الشأن (العنصر الإحالي) متصلا، وقد أحال على عنصر إشاري هو خيبة الظالمين وعدم فلاحهم، والظالم هنا بمعنى الكافر، قال الطبرسي متحدّثا عن معنى الآية "...؛ أي لا يظفر الظالمون بمطلوبهم، وإنّما لم يقل الكافرون - وإن كان الكلام في ذكرهم -، لأنه سبحانه قال في موضع آخر " وَ الْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ"¹⁰³، "..."¹⁰⁴، وبهذا الاستعمال، نلمح التعظيم؛ لأنّ الله عز وجل، أحلّ الظالم محل الكافر للاهتمام والعناية وجاءت جملة " لا يفلح الظالمون " مفسرة لذلك الشأن، وقد حقّق ضمير الشأن تماسكا نصيبا يتجلى من خلال الانسجام والاتساق بين هذه الآية والآيات التي سبقتها (من الآية 128 إلى الآية 134)، فسياق الآيات فيه حديث عن يوم الحشر وما يكون فيه للمؤمن ولغير المؤمن، " وقد علم أنّ العاقبة الحسنة في الدنيا والآخرة للمتقين، وأنّ المؤمنين لهم عقبى الدار، وأنّ كل معرض عن ما جاءت به الرسل عاقبته عاقبة سوء وشر "¹⁰⁵، وهكذا تكون للبنية الإحالية لضمير الشأن وظائف عدّة، تتجاوز وظيفة الربط بين أجزاء الآية .

خاتمة: بعد دراستي للبنية الإحالية لضمير الشأن في بعض آي القرآن الكريم تبين لي ما يأتي :

- تناول علماء التراث العربي (النحاة، البلاغيون، المفسرون) مباحث الدراسة النصية، وإن اختلفت عن ما عرف عند المحدثين اليوم، لا من حيث المضمون، بل من حيث المصطلحات المستخدمة في هذا العلم الذي اصطلح عليه - عند المحدثين - بعلم اللغة النصي.

- ورد ضمير الشأن عند علماء التراث ممن تعرّضوا لدراسة بنيتها بعدة تسميات ذكرناها في موضعها من هذا البحث .

- ورد ضمير الشأن في القرآن الكريم على صور ثلاث : منفصلا ومتصلا ومخدوفا يقدر انطلاقا من سياق الآية.

الاتساق والانسجام بين جملة " وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ نُوحِي إِلَيْهِ " وجملة " إِنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ "؛ لأنّ كلّ الرسل مع كتبهم قبل النبي محمد - صلى الله عليه وسلم - كانت " زبدة رسالتهم وأصلها الأمر بعبادة الله وحده لا شريك له، وأنّ عبادة ما سواه باطلة"⁹²، فالصلة وثيقة بين إرسال الرسل جميعا والدعوة لعبادة الله الواحد القهار.

النموذج التاسع: قوله تعالى " وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَعُوفٌ رَحِيمٌ"⁹³. جاء العنصر الإحالي (ضمير الشأن) مخدوفا والتقدير " إنه "⁹⁴، أو " إنّها "⁹⁵، وقد أحال إلى عنصر إشاري عظيم هو صرف النبي صلى الله عليه وسلم عن القبلة و لكنّه خفّف على المؤمنين، وشقّ على من سواهم، ولم تقتصر أهمية ضمير الشأن على الربط بين أجزاء التركيب بل حقّق تماسكا وانسجاما بين جملة " وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعِ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ " وجملة " وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ"، فالصلة وثيقة بين تحديد القبلة الأولى " وهي استقبال بيت المقدس "⁹⁶، و ما يلحق تشريع هذا الأمر من علم وامتحان، وبين صرف - النبي صلى الله عليه وسلم - عنها، وتوليته الكعبة قبة ثانية، وما يترتب عنه من معرفة نعم الله عليهم ثم شكرها، فهذا تخفيف للمؤمنين، وشقّ على من سواهم، والربط والتسك بين جليّ بين هذه الآية والآية التي بعدها (144)، فالسياق العام يحيل إلى تحديد القبلة إلى بيت المقدس، ثمّ تغيير وجهتها إلى الكعبة المشرفة.

النموذج العاشر: قوله تعالى " وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَتَعَدَّوْا مَعَهُمْ"⁹⁷. جاء العنصر الإحالي (ضمير الشأن) مخدوفا، والتقدير: أنه، وقد أحال إلى عنصر إشاري عظيم هو " الكفر بآيات الله والاستهزاء بها "، فسرته الجملة الشرطية بعده، يقول الزمخشري " والشأن ما فسّرتة الجملة بشرطها وجزائها "⁹⁸، وهو ما ذهب إليه أبو حيان؛ " أي " يستهان بها، وذلك أنّ الواجب على كل مكلف في آيات الله الإيمان بها، وتعظيمها وإجلالها وتفخيمها، وهذا المقصود بإنزالها، ...فضد الإيمان الكفر بها، وضد تعظيمها الاستهزاء بها واحتقارها، ويدخل في ذلك مجادلة الكفار والمنافقين لإبطال آيات الله، ونصر كفرهم، وكذلك المبتدعون على اختلاف أنواعهم، فإنّ احتجاجهم على باطلهم يتضمن الاستهانة بآيات الله "¹⁰⁰. وقد حقّق ضمير الشأن تماسكا نصيبا يظهر من خلال الاتساق والانسجام بين هذه الآية، والآيتين اللتين قبلها (الآيتان 138، 139)، فالآية 138 فيها بشارة للمنافقين والبشارة تستعمل في الخير، وتستعمل في الشر بقيد،

- 13 دراسات لغوية تطبيقية في العلاقة بين البنية والدلالة ، سعيد حسن بحيري، مكتبة الآداب، القاهرة، الطبعة الأولى، 2005 ، ص98.
- 14 دراسات لغوية تطبيقية في العلاقة بين البنية والدلالة، سعيد حسن بحيري، ص98.
- 15 الخطاب وخصائص اللغة العربية – دراسة في الوظيفة والبنية والنمط - ، أحمد المتوكل، دار الأمان، المغرب، الطبعة الأولى، 2010، ص73.
- 16 الخطاب وخصائص اللغة العربية – دراسة في الوظيفة والبنية والنمط - ، أحمد المتوكل، ص74.
- 17 نسيج النص، الأزهر الزناد، ص117.
- 18 نسيج النص، الأزهر الزناد، ص118.
- 19 النص والخطاب والإجراء، روبرت دي بوجراند، ترجمة تمام حسان، ص301 .
- 20 نسيج النص، الأزهر الزناد، ص119.
- 21 المرجع السابق، ص332.
- 22 *Cohesion In English, hallidy and ruqaya hasan*, longman, london, 1976, P37 .
- 23 ينظر: علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق، الفقي، ج1، ص41.
- 24 نسيج النص، ص118.
- 25 علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق، الفقي، ج1، ص40.
- 26 المرجع نفسه، ج1، ص38.
- 27 علم اللغة النصي، ج1، ص39.
- 28 نسيج النص، ص118.
- 29 علم اللغة النصي، ج1، ص40.
- 30 نحو النص، أحمد عفيفي، ص117.
- 31 سورة الإخلاص، الآية 01.
- 32 دور الإحالة في الاتساق النصي، أحمد عفيفي، ص17.
- 33 الكتاب، سيويوه، تحقيق وشرح عبد السلام هارون، عالم الكتب، بيروت، دت، ج1، ص278.
- 34 المقتضب، المبرد، تحقيق عبد الخالق عضيمة، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، 1984، ج4، ص128.
- 35 سورة هود، الآية 170.
- 36 مشكل إعراب القرآن، مكي بن أبي طالب القيسي، تحقيق أسامة عبد العظيم، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 2010، ص230/229.
- 37 سورة البقرة، الآية 45.
- 38 الاكتشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأفاويل في وجوه التأويل، الزمخشري، دار الفكر، دمشق، الطبعة الأولى 1977، ج1، ص278.
- 39 ينظر: لسانيات النص، مُجَّد خطايي، ص173.
- 40 سورة طه، الآية 26.
- 41 البرهان في علوم القرآن، الزركشي، تحقيق مُجَّد أبي الفضل إبراهيم، دار الكتب العلمية، بيروت، 2006، ج4، ص26. وينظر تحليلاته للضائر وإحالاتها، ص18، وما بعدها.
- 42 سورة فاطر، الآية 10.

- كان لضمير الشأن الأثر البالغ في بيان معنى النص القرآني وتوضيحه؛ لأنه عنصر إحلالي، كما أضفى على العنصر الإشاري الذي يحيل إليه، التعظيم والتفخيم بحسب المواضع التي يقع فيها، مما يدفع المتلقي لشد انتباهه؛ لأجل فهم النص.
- لم يقتصر دور ضمير الشأن على الربط بين الجمل والآيات، وتحقيق التماسك النصي على مستوى الآية فحسب، بل كان له - بالإضافة إلى الربط - دور هام في التفسير، وإزالة اللبس والإبهام عن كثير من السياقات، وقد تبين هذا من خلال الجملة المفسرة له، ومدى الانسجام المعنوي بينها.
- شكّلت البنية الإحالية لضمير الشأن إحالة بعدية، بدا دورها واضحا في إحكام بنية النص القرآني وتماسكها؛ فقد كانت الإحالة فيها إلى عناصر إشارية لاحقة؛ لأن هذا الضمير من بين كل ما عده، يعود على متأخر لفظا ورتبة، ومرجعه لا يتقدّم عليه أبدا؛ لأن مرجعه جملة مفسرة له، والمفسر لا يتقدم على المفسر بأية حال.

الهوامش:

- 1 لسانيات النص - مدخل إلى انسجام الخطاب -، مُجَّد خطايي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الثانية، 2006، ص29.
- 2 الإحالة في شعر أدونيس، داليا أحمد موسى، دار التكوين، دمشق، الطبعة الأولى، 2010، ص22.
- 3 لسان العرب، ابن منظور، دار صار، بيروت، 1990، ج9، ص1055.
- 4 المصباح المنير، أحمد بن مُجَّد الفيومي، مراجعة أحمد جاد، دار الغد الجديد، القاهرة، الطبعة الأولى، 2007، ص95.
- 5 دور الإحالة في الاتساق النصي - دراسة في نحو النص -، أحمد عفيفي، دار الهاني، القاهرة، الطبعة الأولى، 2010، ص12.
- 6 لسانيات النص - مدخل إلى انسجام الخطاب -، مُجَّد خطايي، ص17.
- 7 نسيج النص، الأزهر الزناد، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الأولى، 1993، ص118.
- 8 لسانيات النص - مدخل إلى انسجام الخطاب -، مُجَّد خطايي، ص17.
- 9 علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق، صبحي إبراهيم الفقي، دار قباء، القاهرة، الطبعة الأولى، 2000، ص65.
- 10 دور الإحالة في الاتساق النصي - دراسة في نحو النص -، أحمد عفيفي، ص14.
- 11 تحليل الخطاب، ج ب براون و ج بول، ترجمة مُجَّد لطفي الزليطني و نير التركي، مطبعة جامعة الملك سعود، السعودية الطبعة الأولى، 1997، ص36.
- 12 النص والخطاب والإجراء، روبرت دي بوجراند، ترجمة تمام حسان، عالم الكتب، القاهرة، 1998، ص172.

- 43 الإتيان في علوم القرآن، السيوطي، تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم، دار التراث، القاهرة، دت، ج2، ص19.
- 44 ينظر: الخطاب وخصائص اللغة العربية، أحمد المتوكل، ص76/75.
- 45 ينظر: النحو العربي والدرس الحديث، عبده الراجحي، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، مصر، 1988، ص6.
- 46 نحو أجمورية للنص الشعري، سعد مصلوح، مجلة فصول، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، يوليو وأغسطس 1991 المجلد 10، العددان 1 و2، ص153.
- 47 دور الإحالة في الاتساق النصي، أحمد عفيفي، ص23.
- 48 النص والخطاب والإجراء، ص320.
- 49 نسيج النص، الزناد، ص115.
- 50 لسانيات النص، محمد خطابي، ص17.
- 51 ينظر: لسان العرب، ابن منظور، مادة ضمير.
- 52 القاموس المحيط، الفيروز آبادي، شركة القدس، بيروت، الطبعة الأولى، 2009، ص551.
- 53 شرح المفصل، ابن يعيش، عالم الكتب، بيروت، دت، المجلد3، ص84.
- 54 مفتاح العلوم، السكاكي، تحقيق عبد الحميد هندواي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية، 2011، ص132.
- 55 ينظر النحو الوافي، عباس حسن، دار المعارف، مصر، الطبعة الأولى، 1991، ج1، ص217/218.
- 56 نسيج النص، الزناد، ص117.
- 57 التحليل اللغوي للنص، كلاوس برينكر، ترجمة سعيد حسن بحيري، مؤسسة المختار، القاهرة، الطبعة الأولى، 2005، ص44.
- 58 لسانيات النص، محمد خطابي، ص18.
- 59 58 لسانيات النص، محمد خطابي، ص18.
- 60 دور الإحالة في الاتساق النصي، أحمد عفيفي، ص25.
- 61 القاموس المحيط، الفيروز آبادي، ص1257.
- 62 النحو الوافي، عباس حسن، ج1، ص252.
- 63 سورة البقرة، الآية 85.
- 64 سورة المائدة، الآية 113.
- 65 دراسات لغوية تطبيقية، حسن بحيري، ص125.
- 66 ينظر: شرح الرضي على كافية ابن الحاجب، الاسترآبادي، تحقيق عبد العال سالم مكرم، عالم الكتب، القاهرة، الطبعة الأولى، 2000، ج3، ص212، وما بعدها.
- 67 شرح الرضي على كافية ابن الحاجب، الاسترآبادي، ج3، ص214.
- 68 الخصائص، ابن جني، تحقيق محمد علي التجار، المكتبة العلمية، القاهرة، دت، ج2، ص397.
- 69 ينظر: إعراب القرآن، النحاس، تحقيق زهير غازي زاهد، مكتبة النهضة العربية، بيروت، الطبعة الثالثة، 1988، ج2، ص24. والمتنصّد في شرح الإيضاح، الجرجاني، تحقيق كاظم بحر المرجان، دار الرشيد، بغداد، 1982، ج1، ص439. وجمع البيان في تفسير القرآن، الطبرسي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1997، ج6، ص354.
- والجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق سالم مصطفى البديري، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 2000، ج10، ص124.
- 70 الإيضاح في علوم البلاغة، الخطيب القزويني، تحقيق عبد القادر حسين، مكتبة الآداب، القاهرة، 1996، ص10.
- 71 ينظر تفصيل هذه الشروط في: مغني اللبيب عن كتب الأعريب، ابن هشام، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، بيروت، 2007، ج2، ص564، وما بعدها.
- 72 سورة المائدة، الآية 32.
- 73 التفسير الكبير، الرازي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية، دت، ج10، ص123.
- 74 سورة الأنعام، الآية 54.
- 75 الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها وحججها، مكي بن أبي طالب القيسي، تحقيق عبد الرحيم الطرهوني، دار الحديث، القاهرة، 2007، ج2، ص13.
- 76 سورة الكهف، الآية 38.
- 77 تفسير السعدي (تيسير الكريم الرحمان في تفسير كلام المثنان)، عبد الرحمان بن ناصر السعدي، تحقيق عبد الرحمان بن معلّ اللويحي، مؤسسة الرسالة، دمشق، الطبعة الثانية، 2013، ص501.
- 78 سورة الإخلاص، الآية 01.
- 79 ينظر: إملاء ما منّ به الرحمان من وجوه الإعراب والقراءات في جميع القرآن، العكبري، تحقيق نجيب الماجدي، المكتبة العصرية، بيروت، الطبعة الأولى، 2002، ص562. والكشاف، ج2، ص353.
- 80 تفسير السعدي، ص984.
- 81 مشكل إعراب القرآن، القيسي، ص523.
- 82 ينظر: المتنصّد في شرح الإيضاح، الجرجاني، ج1، ص419.
- 83 تفسير السعدي، ص984.
- 84 سورة الأنبياء، الآية 97.
- 85 ينظر: تفسير البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي، تحقيق عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1993، ج4، ص474. وإملاء ما منّ به الرحمان من وجوه الإعراب والقراءات في جميع القرآن، العكبري، ص383.
- 86 سورة المائدة، الآية 72.
- 87 دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، تحقيق عبد الحميد هندواي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 2001، ص299.
- 88 سورة يوسف، الآية 23.
- 89 تفسير السعدي، ص414.
- 90 تفسير السعدي، ص414.
- 91 سورة الأنبياء، الآية 25.
- 92 تفسير السعدي، ص548.
- 93 سورة البقرة، الآية 143.
- 94 ينظر: معاني القرآن وأعرابه، الزخاج، تحقيق عبد الفتاح إسماعيل شلبي، دار الحديث، القاهرة، 2004، ج1، ص193.
- 95 ينظر: المتنصّد في شرح الإيضاح، ج1، ص491.
- 96 تفسير السعدي، ص60.

97 سورة النساء، الآية 140.

98 الكشاف، الزمخشري، ج1، ص578.

99 البحر المحيط، ج1، ص389.

100 تفسير السعدي، ص209.

101 تفسير السعدي، ص208.

102 سورة الأنعام، الآية 135.

103 سورة البقرة، الآية 254.

104 مجمع البيان، ج4، ص168.

105 تفسير السعدي، ص279.